اللغة والجمال

بنيوية من وجهة نظر جديدة

أ. فوزي رشيد
جامعة بغداد -العراق

ملخص

يتناول هذا المقال الذي نضعه بين أيدي القارئ مسألة اللغة من وجهة بنيوية جديدة تعتبر الطبيعة مخبرا كبيرا تجرى فيه عمليات تحويل المادة إلى طاقة و الطاقة إلى مادة .

Abstract

The present article purports to study the issue of language from a new structuralist standpoint that views nature as huge laboratory into which matter is transformed into energy and energy into matter.

من أجل الوصول إلى بنيوية اللغة الجديدة علينا أن ننظر إلى الطبيعة لا من الزاوية التي نرى من خلالها خضوع الكائنات الحية لقانون التطور، وأن الحياة بدأت في الماء أولا ومنه انتقلت إلى اليابسة ومن ثم إلى الجو، وأن الفصيلة الفلانية من الحيوانات أو النباتات متطورة عن الفصيلة كذا، وأن القمر يدور حول الأرض والأرض تدور حول الشمس وهكذا...، بل علينا أن ننظر إلى الطبيعة على أنها مختبر كبير لا تجري فيه إلا عمليات تحويل المادة إلي طاقة والطاقة إلى مادة.

ومما يؤيد ذلك هو أننا لو نظرنا إلى الحيوانات وسلوكياتها، فسوف يبدو لنا واضحا أنها لا تؤدي أي نشاط من نشاطاتها المعروفة إلا بفعل الطاقة الناشئة في أجسامها وليس بتأثير الطعام من قبل تحويله إلى طاقة. فالبنزين على سبيل المثال لا يحرك السيارة ما لم يتم تحويله إلى طاقة. والسيارة تتحرك بعد ذلك بالطاقة الناشئة من احتراق البنزين، بينما التيار الكهربائي يحرك الأدوات بمجرد أن يمر من خلالها، لأنه طاقة وليس مادة عضوية. والسبب في ذلك يعود إلى أن الكائنات الحية والأدوات الصناعية لا تعمل إلا بالطاقة. وبناء على هذه الحقيقة يمكننا القول بأنا الحيوانات من أجل أن تعيش عليها تحويل المادة الغذائية التي تتناولها إلى طاقة. وحين تعجز عن ذلك فإنها تموت لا محال، ولهذا لو احتوت الطبيعة على الحيوانات لوحدها، لتحولت نتيجة ذلك المواد العضوية إلى طاقة ولم يبق لها بعد ذلك أي وجود، وهذا طبعا بسبب هلاك الحيوانات والحياة نفسها، ولكن الطبيعة كما نعلم تمتاز دائما بمحافظتها على التوازن بين ما هو موجود على ظهرها، ومن بين ذلك طبعا محافظتها على التوازن بين المادة والطاقة، لأن هذا التوازن يضمن استمرارية الحياة، ولهذا احتوت الطبيعة علاوة على العالم الحيواني على عالم ثاني هو عالم النبات الذي يقوم بتحويل الطاقة الشمسية إلى مادة من خلال عملية التركيب الضوئي، فالعالم النباتي إذن غرضه الأساسي هو إيجاد التوازن بين المادة والطاقة. وما دام الإنسان يحسب في خط العالم الحيواني فهو يتحرك ويعمل ويفكر بواسطة الطاقة. والطاقة كما نعلم، تنطلق بسرعة مساوية لسرعة الضوء البالغة 200 ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، وهذا يعني أن أفكار الإنسان تتلاشى بمجرد انبعاثها عن الدماغ.

وعلاوة على ذلك فإن الجسم البشري لا يمتلك في داخله أي جهاز يمكنه من استلام الطاقة الناشئة عن أفكار الآخرين، ولهذا الإنسان ما كاد يستطيع الاستفادة الكاملة من أفكاره لأنه عاجز عن إيصالها إلى من يعيشون حوله، ولا يستطيع كذلك الاستفادة من أفكار الآخرين. وهذه في الحقيقة ناحية لا يمكن للإنسان أن يتغاضى عنها، لأنها تمنعه من التفاهم مع أبناء جنسه وتحجب عنه وعنهم الأفكار والخبرات.

ولزيادة الإيضاح في هذا الموضوع، نقول إن إذاعة بغداد وبقية الإذاعات في العالم تبث برامجها على شكل موجات من الطاقة، ذات ترددات إما طويلة أو متوسطة أو قصيرة. ومع ذلك فإن الناس في جميع أنحاء العالم لا يستطيعون لذاتهم استلام هذه

الموجـات، ولهذا لا يمكنهم أن يعرفوا أي برنامج بثته الإذاعة الفلانية قبل ساعة أو تبثه الآن. ولكننا لو أتينا بجهاز الراديو فتصميمه يمكنه من استلام هذه الموجات، ولكنه مع ذلك لا يستطيع إيصال فحواها آليا ما لم يحولها إلى موجات صوتية، لأن الإنسان يمتلك في جسمه الجهاز الذي يمكنه من استلام الموجات الصوتية. فوظيفة جهاز الراديو الأساسية إذن هي تحويل الموجات الطاقية إلى مادة حتى نتمكن من استلامها وإدراك فحواها.

وبناء على هذه الحقيقة، توجب على الإنسان منذ فترات سحيقة في القدم، أن يقوم نفسه بالمهمة التي يقوم بها جهاز الراديو، أي عليه أن يحول أفكاره عن الدماغ على شكل موجات صوتية، حتى يستطيع إيصال أفكاره إلى الآخرين.

وكما تشير الدلائل، فإن الإنسان قد استخدم فمه لهذا الغرض، وهذا يعني أن الفم في الإنسان لم يخلق أصلا لأغراض نطق اللغة، وإنما لأغراض الأكل والشرب. ومن أولى الدلائل التي تؤكد على أن اللغة ما هي إلا وظيفة ثانوية وليست أساسية من وظائف الفم، هو أن الطفل منذ لحظة ولادته يستطيع أن يستخدم فمه لأغراض الأكل والشرب ولكنه لا يستطيع أن يستخدم فمه لأغراض النطق. وعلاوة على ذلك كثيرا ما يعجز الطفل أثناء تدريبه على الكلام من نطق بعض الحروف بالصورة الصحيحة، فلو كان الفم مخصصا أصلا لنطق الحروف لما صعب على بعض الأطفال نطق بعض الحروف بالصورة الصحيحة. هذا ومن الدلائل الأخرى التي تؤكد على أن الفم لم يخلق بالأصل لأغراض اللغة، وإنما دربه الإنسان فيما بعد لأغراض النطق هو أن بعض الشعوب تستطيع نطق حروف لا تستطيع شعوب أخرى نطقها. ومن أبرز الأمثلة على ذلك الحروف الحلقية مثل العين والحاء. فالشعب العربي على سبيل المثال يستطيع نطق الحروف المذكورة، والشعوب الأوروبية لا تستطيع ذلك. فلو كان البلعوم المسبب للحروف الحلقية مخصصا للنطق أيضا لتمكن الأوروبي أن ينطق ما ينطقه العربي. ولكن البلعوم هو ليس لأغراض النطق، بل طوعه العرب فيما بعد لأغراض نطق الحروف الحلقية، ولم يطوعه الأوروبيون لنفس الغرض.

وبناء على ذلك يمكن القول أن اللغة في الإنسان ليست أصلية بل حضارية اكتسبها فيما بعد، مثلما اليد لم تخلق في الإنسان لأغراض الكتابة، بل طوعها لهذا الغرض بعد تعرفه على الكتابة.

والآن وقد بينا أن اللغة في الإنسان ظاهرة حضارية وليست أصلية فيه، ومادمنا نعلم أن الظواهر الحضارية لا تولد كاملة النمو، بل تولد بسيطة ثم تنمو وتتطور شيئا فشيئا. لذلك لا يمكن للإنسان أن يستخدم أعضاء فمه مرة واحدة لأغراض النطق، بل كان

اســـتخدامه لها تدريجيا. والدلائل المتوفرة تؤكد على أنه قد بدأ النطق أولا باستخدام شفته، ومـــن بعـــد ذلك أسنانه، فحنكه وأخيرا بلعومه. ولكن استخدم البلعوم لأغراض النطق قد اقتصر على بعض الشعوب و.ليس كلها.

والأدلـــة الماديـــة علـــى ذلك هو أن الأطفال عندما يبدءون بتعلم النطق، فإن أول ما يســـتخدمونه لهذا الغرض هو الشفاه، بدليل أن أولى الكلمات التي ينطقها الطفل لا بد وأن تكـــون شـــفوية مـــثل:" بابا، ماما..."، وبعد نموه قليلا يبدأ بتلفظ الحروف الأسنانية، أي الحـــروف التـــي تـــنطق بواسطة الأسنان، مثل:"دادا، رارا"، وبعد ذلك يتعلم الطفل نطق الحـــروف الحنكـــية مثل:"تي تي، كه كه" وفي الأخر تماما يتعلم الحروف الحلقية. ومما يؤكـــد علـــى أن الإنســـان قد سلك في تطويع فمه لغرض النطق هذا السلوك، أي انه بدأ باســـتخدام الشـــفاه والأسنانية والحنكية، ولكن ليس جميعها تستخدم الحروف الحلقية التي تـــنطق بواســـطة الـــبلعوم، لأن الشعوب الأوروبية كما مر بنا لم تتجاوز استخدام الحنك لأغراض النطق، لأنها لا تستطيع نطق الحروف الحلقية مثلما ينطقها الشعب العربي.

ومـــن الأدلـــة الأخرى التي تؤكد أن اللغة في الإنسان ليست جزء من خلقته بل هي حضـــارية، هو اختلافها من شعب لآخر. لأن الواقع يؤكد على أن كل شيء خلقه الله عز وجل يتماثل في الشكل والغرض عند جميع البشر وفي جميع أنحاء الكرة الأرضية. وكل شـــيء من صنع الإنسان فهو يختلف من مكان إلى آخر. فالأذن على سبيل المثال، خلقها الله عـــز وجـــل فـــي.الإنسان لأغراض السمع، ولذلك نجدها قادرة أن تسمع أي لغة من اللغـــات، أي صوت من الأصوات المسموعة، إلا الفم فهو لا يستطيع أن ينطق أي صوت كان، بل فقط الأصوات التي درب الإنسان أجزاءه لغرض نطقها.

ممـــا تقدم يبدو أن الإنسان كان مضطرا لاتخاذ لغة خاصة به، وذلك لغرض تحويل طاقـــته الفكـــرية المـــنطلقة بسرعة الضوء، إلى شيء مادي منطلق بسرعة الصوت كي تستطيع الآذان التقاطه، وبذلك يسهل عليه إيصال أفكاره إلى آخرين واستلام أفكارهم.

هذا وإن الإنسان قديما وحديثا لا يصنع شيئا إلا ويحاول أن يجعل ذلك الشيء جميلا. وما دامت اللغة من صناعة الإنسان، فلا بد لها وأن احتوت منذ مراحلها الأولى على القيم الجمالـــية التي آمن بها الإنسان أولا. ولإدراك هذه الحقيقة علينا أن نبين أولا ما هو سر الجمـــال وعلـــى أي قاعدة يستند لكي نتمكن من تحديد قيم الإنسان الجمالية الأولى. ومن يطلع على الآراء العديدة التي قيلت بخصوص الجمال سوف يخلص إلى نتيجة مفادها:"أن الجمـــال يتمثل بالأشياء التي تساعدنا وتشعرنا بالحياة والتطور، أو التي تحمل في طياتها ما يوحي إليهما أو يذكر بهما، وكذلك الأشياء التي تساعد عليهما"[1].

وبناء على هذا التعريف للجمال، فلا بد وأن أولى المواصفات الجمالية التي آمن بها الإنسان القديم تتمثل بالتطابق الكلي بين النصفين الأيمن والأيسر من الجسم، أي التناظر بين جانبي الجسم. وضرورة هذا التناظر قد جاءت ولا شك من تأثير الجاذبية الأرضية، لأن التناظر يحافظ علي توازن الجسم وهو يمارس متطلباته الحياتية تحت تأثير الجاذبية الأرضية، بينما عدم التناظر يخل بحركة الجسم ويعيقه على ما تفرضه الحياة(2).

ومما يؤكد تناظر نصفي الجسم البشري سببه الجاذبية الأرضية هو أن جميع الأجسام المتحركة، أي المتنقلة على الأرض لا تمتلك هذا التناظر سواء كانت تلك الأجسام كائنات حية أو من صناعة البشر مثال السيارة والطيارة والعربة وغيرها من الأجسام المتنقلة. أم الأشياء غير متنقلة كالأشجار مثلا، فكل ما تحتاجه من أجل أن تبقى واقفة على الأرض هو أن يكون مركز ثقلها داخل حدود جذعها وليس خارجه، ولذلك فهي ليست بحاجة إلى التناظر الكلي بين جانبيها كما هو الحال مع الأشياء المتنقلة.

وبسبب ما تقدم فقد أصبح التناظر في حياتنا نحن البشر صفة جمالية لا تضاهيها في الأهمية أية صفة جمالية أخرى، لأنها كما بينا تساعد الإنسان على حياة قبل غيرها من القيم الجمالية الأخرى. ومن دونها لا يستطيع الإنسان وخاصة في القديم ولا الحيوان كذلك أن يعيش في ظروف الصراع المستمر من أجل البقاء. فالتناظر عند الإنسان يقع أذن في مقدمة قيمه الجمالية. و لذلك لا بد وأن فرض نفسه علي منتجاته الحضارية المختلفة. ومدام الإنسان لا يصنع شيئا من دون أن يجعله جميلا، وما دمنا قد أكدنا على أن اللغة هي من إنتاج البشر، لذلك لا بد أن تكون أقدم مراحلها قد بنيت على مبدأ التناظر.

والأدلة المتوفرة تؤكد هذه الحقيقة، حيث أننا لو تأملنا الكثير من استخداماتنا اللغوية وتأملنا كذلك استخدامات اللغة التي لا تزال تحمل في طياتها بقايا المواصفات اللغوية الأولى، سوف نجد بكل وضوح أن التناظر كان فعلا من أبرز سمات لغة الإنسان المبكرة. ومن أبرز هذه الاستخدامات وضوحا هو أسلوب التحبيب أو التدليل الذي نستخدمه مع أسماء الأعلام، فالاسم زهير على سبيل المثال عندما نجعله في صيغة التحبيب يتحول إلى "زو-زو" ولؤي إلى"لو-لو" وسهير إلى"سو-سو" وهكذا... و فيما يخص اللغات التي لا تزال تحمل في طياتها سمات لغة الإنسان المبكرة مثل لغات الشعوب الإفريقية الاستوائية، فهي تستخدم كذلك هذا النوع من التناظر مع عدد كبير من الكلمات مثل:" ماو -ماو "، "تسي-تسي" و"كرو-كرو" وما شاكل ذلك.

وعلاوة على ذلك نجد أيضا الكثير من هذه الأسماء في حكاياتنا الشعبية مثل تسمية"واق-واق" التي كانت تطلق على بلاد اليابان وعلى أغلب البلدان النائية. ونجد

مثلها في النصوص المسمارية أيضا، حيث أن النصوص المذكورة قد قدمت لنا مئات الأمثلة من أسماء الأعلام المتآلفة من مقطعين متماثلين مثل: "مو-مو"، "خوخ-خو"و "لو-لو" وهكذا...[3].

وإضافة على ما تقدم فإننا نستخدم اللغة الأولى عندما نتحدث مع الأطفال لأنها اللغة التي تتناسب ومداركهم.وكمثال على ذلك نستخدم الاسم "عو-عو" عندما نريد أن نلفت انتباه الطفل إلى الكلب و"تي -تي" عندما نحدثه عن الدجاجة و"بش-يش" عندما ننادي له أو لأنفسنا على القطة، وبابا وماما ودادا التي مر ذكرها.

ومن الأدلة الأخرى هو أن عددا ليس قليلا من أسماء الحيوانات تستند على قاعدة التناظر مثل: "هد-هد" و"بل-بل" و"لق-لق". هذا، ومما لا شك فيه أن التناظر بين جزئي الجسم كان السبب المباشر في ظاهرة التثنية في اللغة العربية، لأن التثنية لم تستعمل أصلا ألا مع أعضاء التي هي مزدوجة مثل اليدين والقدمين والأذنين والعينين. وهذه التثنية التي أساسها التناظر الموجود في أجسام العالم الحيواني التي صارت السبب المباشر في أن لا تزيد حروف الكلمات والأفعال الصحيحة عن اثنين، ولذلك كانت جذور الكلمات والأفعال في اللغات الأولى وبالأخص العرب متألفة من حرفين اثنين لا أكثر.

والتناظر كقيمة جمالية لم تنعكس في اللغة فقط، إنا انعكست في أمور أخرى من أبرزها الشعر، حيث أن القصائد العمودية مهما كان وزنها وقافيتها، فكل بيت من أبياتها يتكون بصورة أساسية من جزئين متماثلين في الوزن هما الصدر والعجز، ولهذا يمكننا القول أن القصيدة العمودية لوحده يمثل صفة جمالية بغض النظر عن الموسيقى والمعنى الموجود فيها، لأن بناء القصيدة العمودية يتماثل من حيث التناظر مع بناء الجسم الإنساني السليم.

والتناظر كما يثبت ذلك الواقع قد تمثل كذلك في فن العمارة، فالمنشآت البنائية كما نعلم لا تحتاج أبدا إلى التناظر من أجل أن تظل قائمة على الأرض، بل تحتاج أن يقع مركز ثقلها داخل حدودها وليس خارجه، كما هو الحال مع جميع الأشياء غير المتحركة. ومع ذلك فإن جميع الأبنية الفخمة مثل المعابد والكنائس والأبنية التذكارية على اختلافها نجدها مصممة على أساس التناظر، لأن كما قلنا التناظر صفة جمالية، والإنسان لا يعمل شيئا من دون أن يمنحه قيمة جمالية.

هذا وبعد أن قطع الإنسان شوطا من حياته بدأ يشعر بحاجته إلى الأعداد وكيفية استخدامها. وبالتأكيد عرف العدد واحد قبل غيره من بقية الأعداد من خلال ذاته، لأن جسمه كاملا يمثل الواحد، وعرف العدد اثنين من خلال تناظر أعضاء جسمه المتناظرة. أما العدد ثلاثة فليس في جسم الإنسان ثلاثة أعضاء متماثلة تمكنه من التعرف على العدد

المذكــور، و لذلك فإن العدد ثلاثة لا يتكون أمامه إلا من اجتماع ثلاثة أشياء، ولذلك أخذ العدد ثلاثة يرمز إلى الجمع.

وخير دليل على ذلك هو لغتنا العربية، حيث أنها تحتوي على المفرد والمثنى فقط وما يزيد على الاثنين يعتبر جمعا.

واعــتماد علــى قانون العلل المتشابهة تنتج عنها نتائج متشابهة، أي أن الخير لا ينتج عنه إلا الخير، والشر لا ينتج عنه إلا الشر. فقد أخذ العدد ثلاثة يرمز إلى البركة ما دام الجمــع هــو الكــثرة، أي البركة، وتحول العدد ثلاثة إلى رمز الخير والبركة، اللذين تحــتاج إلــيهما حياة البشر كثيرا، قد فسح الطريق للعدد المذكور لأن يفرض على معظم النتاجات البشرية كما فرض التناظر من قبل.

ولتوضــيح هذا الموضوع، نعرض المجالات التي فرض العدد ثلاثة نفسه عليها الواحد تلو الآخر:

<u>1-في مجال اللغة:</u>

لقــد ذكــرنا قبل قليل أن جذور الأفعال في اللغة العربية كانت تتألف في مراحلها المــبكرة من حرفين لا أكثر. وهذه الحقيقة أبدتها الدراسات اللغوية. ونفس هذه الدراسات قــد أكدت على أن حروف تلك الجذور قد زادت في مرحلة تالية وبلغت ثلاثة، ولكنها لم توضــح لنا الأسباب لهذه الزيادة، على الرغم من علمنا أن أي تغيير أو تطوير يطرأ على اللغة أو على أي شيئ آخر، لابد وأن يكون لذلك التغيير سبب.

والســبب الذي دعا إلى زيادة حروف جذور الأفعال إلى ثلاثة بعد أن كانت اثنين هو اتخاذ الشعوب القديمة للعدد ثلاثة كرمز للخير والبركة. ومن الأمثلة التي يمكن أن نقدمها بهــذا الخصــوص هي الأفعال التالية: قلع، خلع، بلع، طلع، فلع، وهلع، حيث أنها جميعا قريــبة مــن بعضها في معناها، ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن المصدر كان في الأصل متألفا مــن الحرفيــن "لــع" وعندما دخلت الثلاثية كرمز للبركة أضيف لها بقية الحروف، التي حرف كل واحد منها معنى الجذر الأصلي بعض الشيء عن المعنى الذي كان يدل عليه، لأن أحــداث هــذه الأفعــال جميعا تبعد المفعول به عن مكان تواجده قبل وقوع الحدث. "الحدث "

ومن خلال الدراسات الخاصة في فقه اللغة تبين أن الحرف الثالث لم يوضع دائما في مقدمــة الجــذر، وإنمــا هناك أمثلة تبين أنه قد وضع في وسطه مثل: قرص الناشئة عن قص، وشرق عن شق. أمثلة أخرى تبين أن الحرف الثالث قد وضع في نهاية الجذر مثل: قطــف، قطر، قطع، قطن وقطم. وهذه الجذور جميعها بمعنى الانفصال، وإنها ناشئة عن المصدر الثنائي"قط[4]".

وأمـــا الأسماء غير المشتقة من الأفعال فإنها تقدم الدليل الآخر على أن الإنسان قد بدأ كلماتـــه بحرفيـــن ثم أضاف لها بعد ذلك حرفا ثالثا. حيث أننا لو دققنا النظر في الكلمات التـــي ظهـــرت في حياة البشر في مراحل لغته المبكرة، سوف نجد أن معظمها يتألف من حرفين والتي تتكون من ثلاثة حروف، فأصلها أيضا كان ثنائيا. ولنأخذ على سبيل المثال أســـماء أفـــراد العائلـــة وأعضاء الجسم. وعلاوة على ذلك فإننا لو دققنا النظر في أسماء الظواهـــر الطبيعية التي عرفها الإنسان كذلك منذ مراحل مبكرة، فعلى الرغم من تكونها مـــن ثلاثـــة حروف مثل: بحر، نهر، شجر، طير، صخر، قمر، مطر، حر ومر، إلا أن تركيبها يوحي على أنها كانت في الأصل من حرفين، وعندما دخلت الثلاثية أضيف إليها حرف ثالث هو الراء.

أمـــا أسماء الأعلام فهي كذلك قد قدمت لنا الدليل على تأثرها بالثلاثية، حيث سبق لنا وأن رأيـــنا بعـــض أسماء الأعلام التي تتألف من مقطعين متشابهين، وبعد دخول الثلاثية أضـــيف لمـــثل هذه الأسماء مقطع ثالث. وهذا المقطع الثالث وضعته بعض الشعوب في مقدمـــة الاسم: "خم-با-با"، "كي-نو-نو"، "ب-نا-نا"، أي "لو-لو" و"ما-ما-ما" وقسم قليل وضع المقطع الثالث في نهاية الاسم مثل: "لو-لو-بي"، "ما-ما-خو"، و"ما-ما-يا"[5].

ومـــثل هـــذه الأســـماء قد ظهرت في النصوص المسمارية بكثرة، بحيث أن الباحث المســـماري "كيلـــب" قد اعتقد بأن هذه الأسماء تعود إلى لغة غير معروفة اصطلح عليها تســـمية لغة الموز "Banana Language"، لأن كلمة "ب-نا-نا" تتألف من ثلاثة مقاطع، الأخيران متشابهان والأول مختلف عنهما[6]. والآن بعد أن عرفنا سر هذه الأسماء لم تبق ضرورة لأن نظل مفترضين "لغة الموز" وذلك لعدم وجود أي واقع حقيق لها.

2-في مجال الشعر:

لقـــد ســـبق وأن ذكرنا بأن التناظر كقيمة جمالية قد انعكس كذلك في الشعر بحيث أن القصائد العمودية مهما كان وزنها ومهما كانت نوعية قافيتها، فكل بيت من أبياتها يتماثل فيه من حيث الوزن الصدر مع العجز من أجل تحقيق التناظر. وعندما دخلت الثلاثية، ما كـــان بالإمكان إضافة شطر ثالث إلى الصدر والعجز مثلما فعلوا مع أسماء الأعلام، لأن ذلـــك يؤثر على تناظر جزئي القصيدة، وفي الوقت نفسه ما كان بالإمكان إهمال الثلاثية وتـــركها جانـــبا، لأنهـــا كما قلنا كانت رمزا للخير والبركة، والحياة بدونهما لا طعم لها، ولذلـــك حل مفكرو ذلك الزمان الموضوع بإبقاء التناظر، أي الصدر والعجز في كل بيت مـــن أبيات القصيدة العمودية، ولكن بشرط أن تكون تفعيلة كل شطر من الشطور الثلاثية، وبهذا تمكنوا من إدخال الثلاثية إلى الشعر مع الحفاظ على بناء القصيدة المتناظرة، وخير دلـــيل علـــى ذلـــك هو الرجز الذي هو من أقدم أنواع الشعر، حيث كل شطر من شطور القصيدة المنظومة رجز كما يعلم المختصون يتألف من ثلاث تفعيلات.

وهـذه الحقـيقة يستطيع المرء أن يتلمسها بوضوح، لا في الرجز والأشعار الشعبية فقـط، بل حتى في الأغاني الشعبية التي أنجزتها معظم الشعوب وخاصة الشعب العربي، والتي أدلفت في فترات ماضية مثل:

طلعت/الشمي/سة على/وجه/عيشة

عيشة/بنت/الباشا تلعب/بالخر/خاشة/

صاح/ الريح/بالبستان الله/ ينصر/السلطان

وفـيما يخص الرجز فاكتفى هنا بعرض بيت واحد لا أكثر، لأن موضوعه معروف بالنسبة للمهتمين في شؤون الشعر واللغة: صوت/صغير/البلبل هيج/قلب/الثمل

3-في مجال البناء:

مـادام الإنسـان يسعى دائما لاقتناء الأشياء التي تبدو جميلة في نظره، فهو كذلك لا يبني بناء مهما إلا ويضمنه قيمته الإجمالية، ولهذا فإن الثلاثية قد فرضت نفسها على أبرز الأبنـية القديمـة، ومـن الأدلة على ذلك هي الزقورات، أي المعابد المدرجة، وبالأخص زقورتـي أور والوركـاء، حيث أن بقايا هاتين الزقورتين تؤيد على أن كل واحدة كانت تتألف من ثلاث طبقات. وكذلك الحال مع بقية الزقورات، حيث على الرغم من أن بقاياها لا توضـح كـم كـان عدد طبقاتها أصلا، إلا أننا نعتقد أنها جميعا كانت تتألف من ثلاث طبقات.

ومـن الأبنية المهمة الأخرى التي احتوت على الثلاثية هو البناء الحجري الذي كشف عـنه في مدينة الوركاء، والذي يمثل المدخل إلى العالم السفلي، لأن هذا البناء يتألف من ثلاثـة جـدران الواحد يحيط بالآخر وله كذلك ثلاثة مداخل، علما أننا نعتقد أن أسطورة الآلهـة إيـنانا والإلـه تموز إلى العالم السفلي كانت تمثل هذا البناء، أي أنه أولى أشكال المسرح في التاريخ.

وفيما يخص بلاد وادي النيل فنحن نعلم أن الملك زوسر مؤسس السلالة الثالثة قد بنى أولى أهرام مصر، وكان هرمهم مدرج الشكل ويحتوي على ستة طبقات.

وشكل الهرم الذي أمر ببنائه الملك زوسر يوحي على أنه متؤثر بالزقورات العراقية، وأن كـل ما فعله الملك المذكور من جديد هو مضاعفته لعدد منصات الزقورات العراقية، لذلـك صـار هرمه بست طبقات. وهذه المضاعفة بلا شك قد أفقدت هرمه الثلاثية رمز الخـير والـبركة، ولذلك عندما قام الملك خوفو، ثاني ملوك السلالة الرابعة ببناء هرمه، أعـاد الهـرم إلـى الثلاثية التي فقدها هرم زوسر، لأن كل وجه من وجوه الهرم الكبير لخوفو عبارة عن مثلث ويواجه إحدى جهات العالم الأربعة الرئيسية.

الهوامش:

1- ما هو الجمال، مخطوط، د.فوزي رشيد، ص2.

2- التراث الشعبي، العدد الفصلي الثالث، صيف 1978، نشأة الشعر والشعر الشعبي، ص19.

3- حمرين 4، أقدم الكتابات المسمارية المكتشفة في حوض سد حمرين، د.فوزي رشيد، ص29.

4- دراسات في فقه اللغة، د.صبحي صالح، ص155-160.

5- حمرين 4، أقدم الكتابات المسمارية المكتشفة في حوض سد حمرين، د.فوزي رشيد، ص29-30.

6- j.Gelb, MAD, I, SARGONIC TEXTS FROM THE DIALA REGION, 1952.

7- الأقلام، السنة الحادية والعشرين، العدد السابع، تموز، مدخل إلى العالم السفلي، ص27-28.

8- مصـــر الفراعـــنة، تألـــيف: سير ألن جاردنر، ترجمة: د.نجيب ميخائيل إبراهيم، مراجعة: د.عبد المنعم أبو بكر، عام 1972، ص91.

9- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني، حضارة وادي النيل، الأستاذ طه باقر، ص34-40.